مجلة جامعة الملك سعود م١، الآداب (١، ٢)، ص ص ١٨٩ ـ ٢١٦ (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)

الشخصية العربية في القصة الرائجة المطبوعة في الولايات المتحدة الأمريكية (١٩١٩ـ ١٩٧٣م)

محمد منصور أبا حسين

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. تقدم هذه الدراسة تتبعًا تاريخيًّا وتحليلاً أدبيًا للصورة النمطية للشخصية العربية stereotyped arab image كما ظهرت في بعض الروايات الشعبية الرائجة sub-literary fiction المطبوعة في الولايات المتحدة الأمريكية مابين ١٩١٩ـ ١٩٧٣م.

إن الهدف الذي يسعى إليه هذا البحث هو دراسة الأطوار التي مرت بها صورة الإنسان العربي في الروايات الرائجة المطبوعة في الولايات المتحدة خلال خمس حقب من تاريخها المعاصر (١٩١٩ـ١٩٧٣) وتمتد هذه الفترة الزمنية المتميزة منذ توقيع معاهدة فرساي عام ١٩١٩م وتنتهي بتوقيع دول الاوبك الحظر النفطي عام ١٩٧٣م. وتمثل هذه الحقب الخمس تدخل السياسة الغربية في شؤون الوطن العربي، وتنقيب الشركات الغربية عن النفط، وما تلاه من استنزاف لثروات الوطن العربي حتى عام ١٩٧٣م، حيث تمكنت الدول العربية من تحقيق بعض المكاسب ونبهت الغرب إلى أن الشخصية العربية تملك قوة اقتصادية يمكنها استخدامها إذا لزم الأمر.

ولا يمت هذا الجنس القصصي إلى الأنواع الروائية الفنية البناءة بصلة، وإنما هو نوع يقرأ عادة للهروب واستخلاص المتعة الآنية.[١] وقاريء هذا النوع القصصي لا يناقش

(١) Rene Wellek and Austin Warren, *Theory of Literature* (New York: Harcourt Brace, 1977), p.30.

ماهية المادة التي يقرأها، فغاية ما يسعى إليه هو الهروب وعدم التصادم مع أفكار تتعارض مع تصوراته المُسبَقَة وتحرمه الاستمتاع بما يقرأ.

كما أن هذا النوع القصصي لا يسعى إلى استنهاض أفكار القارىء أو محاورتها، فقاريء القصة الرائجة لا يبحث في الطريقة التي سلكها المؤلف في رسم شخصياته أو الحوافزالتي دفعته إلى الكتابة، فإذا ماهيىء له مؤلف يحقق له متعة الهروب، اقبل على اقتناء هذا النوع القصصي، وهذا بدوره سيضمن للمؤلف دخلاً ماديًّا ويكفل للقصة سيرورة ورواجا.(٢)

وطالما أن هذا النوع القصصي معد سلفًا للاستهلاك والإطراح بعد القراءة disposa-ble literature ، فليس من المتوقع أن يستمر عليه الطلب سنة بعد أخرى، فالرواية التي كتبت في سنة ما قد تفقد الكثير من بريقها وقدرتها على اجتذاب القاريء في السنة التي تليها.

وينبني على ذلك أنه لكي يضمن مؤلفو هذا النوع القصصي دخلاً يمكنهم من العيش، فإنهم يعمدون إلى مخزون ذهني يمدهم بصور وملامح جاهزة مما يصح تسميته بالشخصية النمطية stereotype ليقدموها إلى قرائهم دونما جهد أو عناء. والشخصية العربية التي ظهرت في هذا النوع القصصي، غالبًا ما تكون شخصية نمطية، استمدت شرعيتها من غياب الاتصال المباشر بين الإنسان العربي والمجتمع الأمريكي. فملامح الشخصية العربية عند القارىء والمؤلف قد تشكلت في ذهنيهما معًا عن طريق غير مباشر، فالوسائل الإعلامية والمقررات المدرسية والمؤلفات المختلفة التي تناولت الحضارة العربية قد كرست الصورة السلبية للإنسان العربي. وغالبًا ما تكون مغرضة في أحكامها ومناوئة في أهدافها وكثيرًا ما عرضَت العرب في صورة غير عادلة.(٣) وعلى غرار ذلك يشكل كاتب القصة الرائجة ملامح الشخصية العربية لتتفق مع توقعات القارىء وتصوراته لتلك الشخصية التي تعرَّف عليها من خلال تلك المصادر المغرضة.

---

(٢) Albert Van Nostrand, *The Novel Denatured* (New York: Bobb-Merril, 1960), p.156.

(٣) Iyad al-Qazzaz, "Images of the Arabs in American Social Science Textbooks," in Abu Laban, et al., *Arabs in America* (Wilmette, Il: The Medina Univ. Press International, 1974), pp.113-32.

فالشخصيات الجاهزة والصور المقولبة للإنسان العربي في تلك الروايات لم تأتِ من فراغ، وإنما تعود في وجودها إلى آماد تاريخية بعيدة. وهذا المخزون المغلوط الذي يشترك المؤلف والقارىء في استحضاره، قد كشف عنه عدد من الباحثين سواء في الوطن العربي أو في العالم الغربي. ولعل أكثر تلك الدراسات مساسًا بموضوع هذا البحث هو ما كتبه ساري ناصر[٤] ومحيى الدين صبحي[٥] وجانس تيري[٦] والمقالات التي ضمنها كتاب *الرؤية المنفصمة*.[٧] فكتاب ساري ناصر يرصد التطور التاريخي والمراحل المختلفة التي مرت بها الشخصية العربية منذ أيام الاتصال الروماني العربي مرورًا بفترات الغزو الصليبي إلى وقتنا الراهن ويركز الضوء على فئات غربية كان لها اتصال مباشر مع العرب، هي فئة التجار والرحالة والمستشرقين، والساسة.

فالتجار بطبيعة مهنتهم لم يفهموا الحضارة أو الشخصية العربية فهمًا يقيهم من الوقوع في الزلل عند إصدار أحكامهم. وغالبًا ما تنم انطباعاتهم عن جهلهم وتحاملهم. فلقد صوروا العرب في أشكال مغرقة في غرابتها. فالعربي إنسان يحترف النهب ويمتهن الكذب وسيلتين للعيش.

أما الرحالة فقد جاءت كتابات بعضهم مجانبة للواقع وبعيدة عن الموضوعية والتجرد وصنفوا العرب كما لو كانوا سكان كوكب آخر.

ولهذه الانطباعات والمعلومات أهمية في استمالة الفئة الثالثة وهي فئة المستشرقين والذين على الرغم مما نجده في كتابات بعضهم من جوانب إيجابية؛ إلا أن معظم ما أوردوا عن العرب كان نتيجة لمواقفهم وأغراضهم الشخصية. فأفاد الساسة الغربيون مما أشاعه الرحالة والمستشرقون من تخلف العرب في تحقيق مطامعهم السياسية آنذاك، وتبنى الصهاينة تلك المعلومات المغلوطة وروجوا لها لتنفيذ مآربهم السياسية ومطامعهم الاستيطانية.

---

(٤) Sari Nasir, *The Arabs and the English* (London: Longman, 1976).

(٥) محيى الدين صبحي، *ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للأمة العربية* (القاهرة: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨م).

(٦) Janice J. Terry, *Mistaken Identity* (Washington, D.C.: American Arab Affairs Council, 1985).

(٧) Edmund Ghareeb, *Split Vision* (Washington, D.C.: American-Arab Affairs Council, 1983).

أما كتاب *ملامح الشخصية العربية* لمحيي الدين صبحي، فإنه يتقصى بعض المؤلفات الغربية المعاصرة والتي اتخذت من الحضارة العربية مادة لها، ويفند مزاعم رالف بتاي اليهودي المجري الذي تخرج في جامعة القدس بفلسطين ثم هاجر إلى الولايات المتحدة وشغل وظيفة أستاذ في عدد من الجامعات الأمريكية ولقيت كتبه مكانة مرموقة في الأوساط الأكاديمية.

والموضوع الذي ندب له نفسه هو القول بأن الشخصية العربية شخصية تؤمن بالعنف وتتسم بالقسوة. كما يناقش محيي الدين صبحي كتبًا أخرى لديفد بن جوريون وجولدا مائير وتوماس كرنان ويخلص إلى أن خطورة هذه الكتب تكمن في ادعائها الموضوعية وفي كونها كتبًا يستخدمها الطلاب في الولايات المتحدة الأمريكية ويستقون منها معلومات مغلوطة. ثم تأتي القصص الرائجة لتكرس هذا التصور السلبي.

والكتاب الثالث الذي أفادت منه هذه الدراسة هو *الرؤية المنفَصِمة (Split Vision)* الذي اشتمل على عدد من المقالات حول دور الوسائل الإعلامية في تشويه الشخصية العربية في الغرب.

كما أن كتاب *العربي في الصحافة الأمريكية*[٨] قد تولى مهمة الكشف عن ملامح الصورة الذهنية للإنسان العربي في الصحافة الأمريكية.

تحاول هذه الدراسة أن تكشف عن الطريقة التي تم بها رسم الشخصية العربية في الرواية الرائجة والأطوار التي مرت بها خلال تلك الحقب الخمس، وقد روعي في اختيار هذه الروايات أن تكون ممثلة لهذا النوع القصصي المتاح للقراء في تلك الفترات الزمنية المختلفة وأن تكون محققة للنقاط التالية:

(١) أن تكون الرواية قد طبعت في دار نشر رئيسة. فنشر قصة ما في دار نشر معروفة سيضمن لها الشيوع.

---

(٨) غازي زين عوض الله، *العربي في الصحافة الأمريكية* (جدة: تهامة، ١٩٨٥م).

(٢) مراعاة التسلسل التاريخي، إذ يمكن من خلال ذلك تتبع التطورات والملامح العامة للشخصية العربية في القصة الرائجة خلال خمس حقب من تاريخنا المعاصر.

(٣) تيسر الحصول على القصة، فنظرًا لخصوصية هذا النوع القصصي فإنه غالبًا ما يفقد جاذبيته، فيزاح من الرفوف لإفساح المكان لقصص يلبي الذوق العام ويساير الأحداث.

(٤) اشتمال القصة على عدد كافٍ من الشخصيات العربية التي من خلال أفعالها يمكن استخلاص الملامح العامة للشخصية العربية كما رسمها المؤلفون.

وقد وقع الاختيار على عشر روايات سيتم التركيز على خمس منها. أما الروايات الخمس الأخرى فإنه سيتم الإحالة إليها وإيضاح ما تشترك فيه مع غيرها من الروايات، سواء في معالجة الشخصيات أو النظرة إلى الإسلام والحضارة العربية أو ماله علاقة بتشكيل الصورة العامة للشخصية العربية في ذهن القارىء الأمريكي.

ومن خلال التحليل التاريخي فإنه سيتسنى تتبع التغيرات التي مرت بها ملامح الشخصية العربية في تلك الروايات واستجابة هذه التغيرات للرياح السياسية والأحداث التاريخية والمعطيات الاقتصادية المختلفة.

وأول قصة في هذه الدراسة هي «اللبوة»[٩] *The Lioness* وتنتمي هذه القصة إلى جنس القصة الرومانسية/ المغامرة. وتظهر الشخصيات العربية في هذه القصة متحلية بالشجاعة في تصديها للاحتلال الأسباني إلا أنها شخصيات مسلوبة الإرادة وتعيش في طور بدائي متخلف.

وبطلا هذه القصة هما راس بن هوقر وزوجته عزيزة، اللذان ينتميان إلى إحدى القبائل البربرية ويتحدثان اللغة العربية ويعتنقان الإسلام على الطريقة الصوفية.

تبدأ القصة بغارة يشنها بعض رجال البربر على قافلة أسبانية بقيادة راس بن هوقر بغية نهبها وقتل أفرادها. وعندما يعلم قاضي القرية بنبأ هذه العملية يصدر أمرًا بإلقاء القبض

---

(٩) Ferdinand Ossendowski, *The Lioness* (New York: E.P. Dutton, 1929).

على المهاجمين فيختار راس بن هوقر الاختفاء ويظل طريدًا يتحين سنوح الفرصة للاجتماع ثانية بزوجته عزيزة.

ويذكرنا هذا المشهد الافتتاحي العنيف بما كتبه التجار الرومان عن طبيعة الإنسان العربي وما جبل عليه من حب للنهب وسلب للقوافل التجارية.(١٠)

يختار بطل الرواية راس بن هوقر التوجه إلى مراكش وبينما هو في الطريق يقابل صف (صف فقط دونما ابن أو ال أو ار)(١١) ويتعلم منه حرفة الحواية وعند دخوله مراكش تتناهى إليه أنباء المقاومة المغربية ضد الاحتلال الأسباني فتراوده الأفكار بالانخراط في صفوف المجاهدين في حربهم المقدسة holy war ضد الكفار الأسبان الذين تعاون معهم قاضي قريته وتسبب في إبعاده عن زوجته، وفي الوقت نفسه تدرك عزيزة أن القاضي قد انحاز إلى جانب الأعداء، فعندما أحضِرت للاستجواب بتهمة التستر على زوجها الهارب نجدها تندفع متسائلة:

> أود أن اسأل حضرة القاضي عما إذا كان الحديث النبوي الذي ينص على عدم معاقبة رجال قبيلة الشلو على الهجوم الذي شنوّه على القافلة الكافرة لم يعد ساري المفعول، وعما إذا كان القرآن الكريم والحديث يستثني هؤلاء النصارى الذين يسعون إلى السيطرة على أرضنا.(١٢)

لقد اختار المؤلف أن يزج بهذا الحديث المختلق ليقيم علاقة بين العنف والدين الإسلامي.

ويسعى الكاتب جاهدًا إلى خلق أجواء غريبة بغية الإثارة والتسلية، ففي أحد شوارع مراكش يصف اكتظاظ الشارع بالسابلة وبالحجاج:

> الذين أتوا من مولاي إبراهيم لزيارة مسجد كتبي وأضرحة الحكام السعديين، جموع من المتسولين الذين يذرعون المغرب من أقصاها إلى أقصاها بحثًا عن الصدقات، وجموع من المهرجين والدراويش ورواة الأساطير والمشعوذين الذين يعرضون بضاعتهم في الأسواق

(١٠) Nasir, *Arabs,* pp.21-25.

(١١) Ossendowski, *Lioness, p.39.*

(١٢) Ibid., pp. 56-57.

وبيوت الأغنياء، وعدد كبير من النخاسين المتسترين عن السلطات الفرنسية، ورهط من مدعي النبوة وجموع من النساء. جميع هؤلاء قد اجتذبتهم مراكش على اختلاف غاياتهم.(١٣)

فهذا المشهد على الرغم من طرافته إلا أنه سيخلف انطباعًا سلبيًّا في ذهن القارىء الأمريكي، والشخصيات التي تكتظ بها هذه الرواية هي شخصيات تلجأ إلى السحر والشعوذة وتجد في الأمور الغيبية وسيلة خلاص وعزاء. والشعوب التي تلجأ إلى مثل هذه الطقوس هي شعوب بدائية ومتخلفة كما يصنفها علم الانثروبولوجي.(١٤)

لقد فشل الكاتب في رسم صورة مقنعة ومتدرجة للبطل فجاءت شخصيته مسطحة flat charater في حين أن رسمه لشخصية عزيزة قد كان أكثر توفيقًا إذ يدفعها البحث عن العدالة إلى المواجهة والتصادم. ومعاناتها تبدو أكثر عمقًا من معاناة زوجها، فقد سجنت واغتصبت. خدعها صقر السنوسي إذ زعم أنه قد أتى لإنقاذها من السجن والمسير بها إلى مراكش حيث زوجها. في حين أنه في واقع الأمر نخاس يتاجر بالرقيق، ويحاول بشتى الطرق أن يوقعها في حبائله. وأثناء الرحلة يستخدم شتى الوسائل لإغوائها، فمن محاولاته المستمرة لإقناع عزيزة بالمرونة واحتراف البغاء أنه ندب خادمه ليقول لها:

هل هناك ما يجلب العار في امتهان تلك الحرفة؟ إن الكتاب المقدس والحديث لم يحرما ذلك، إن المرأة بعملها هذا إنما تجلب السعادة والمتعة لعدد أكبر من الرجال فتخفف عنهم صعوبات الحياة وبهذا فإنها تحقق رغبة الله.»(١٥)

تنفرد هذه القصة عن غيرها من القصص الرائجة باتكائها على الكذب الصراح وتبرير تلك الممارسات اللاأخلاقية تبريرًا دينيًّا يستشهد فيه المؤلف بالقرآن الكريم والحديث. واستشهاد المؤلف بالقرآن الكريم والحديث وأنهما يبيحان الدعارة أمر قد يقبله القارىء الأمريكي دونما نقاش أو تفنيد.

---

(١٣) Ibid., p.72.

(١٤) صبحي، *ملامح الشخصية*، ص ج.

(١٥) Ossendowki, *Lioness*, p.192.

وهذا التاجر عربي على قدرٍ من الوسامةِ والثراءِ، . إلا أنه لا يقيمُ للأخلاق وزنًا ولا للقيم اعتبارًا .[١٦] وبعد وصول القافلة إلى قسنطينة يعمد صقر إلى بيع عزيزة على أحد بيوت الـدعـارة طالبًا منها الانتظار ريثما يذهب لإحضار زوجها . وفي هذا الماخور يحاول أحد الضباط الأسبان اغتصابها فتنقلب المرأة إلى لبوة شرسة، وتهجم على الضابط فيكون عاقبتها السجن «لتكون عبرة لغيرها من هؤلاء الأنذال الملونين والمتوحشين .»[١٧]

ومـا أن تتمكن من الهـرب حتى ينتهي بها الأمر ثانية إلى أحد المواخير المنتشرة في قسنطينة؛ وهناك يغتصبها أحد الضباط الأسبان ويشج رأسها فتنقل إلى أحد المستشفيات حيث تلتقي بزوجها فتفضي إليه بأنها لم تعد طاهرة وأنها غير جديرة بأن تكون زوجة له . عندها يذهب زوجها رأسًا إلى المحكمة بحثًا عن العدالة فلا يجدها .

وتنتهي القصة بمشهد يتبادل فيه راس وزوجته وأحد أفراد المقاومة النار مع الجنود الأسبان حيث يلقى الجميع حتفهم .

إن الانطباع الذي يخرج به القاريء بعد قراءته لهذه القصة هو أن العرب دعاة إلى احتراف البغاء، يؤمنون بالشعوذة والاحتيال، ويمتهنون قطع الطريق ونهب القوافل .

وتشبه قصة «لحـم الثور الوحشـي»[١٨] *Flesh of the Wild Ox* التي تقع أحداثها في المغرب القصة السابقة إلا أنها أسوأ من سابقتها شكلاً ومضمونًا وشخصياتها أكثر تخلفًا وغرابة .

قدم لهذه الـرواية أستـاذ مادة الانثـروبـولوجي في جامعة هارفرد لإضفاء نوع من المصداقية عليها . يقول في مقدمته «يقطن جبال المغرب شعب أشقر يتحدث اللغة الحامية ويعتنق الإسلام وينغمس هذا الشعب في حروب قبلية وأعمال ترفيهية انتحارية .»[١٩]

هذه القصة من نوع الرواية الشخصية ويحتوي كل فصل من فصولها على الأحداث والوقائع التاريخية لقبيلة عبدالمؤمن وأبنائه الأربعة . وتتحكم العادات والتقاليد والمعتقدات

---

(١٦) Ibid., p.178.

(١٧) Ibid., p.208.

(١٨) Carlton Stevens Coon, *Flesh of the Wild Ox*. (New York: William Morrow, 1932).

(١٩) Coon, *Flesh*, p. ix.

الخرافية في سلوك الشخصيات ونتائج الأحداث. وتكرس القصة بعض المفاهيم المغلوطة عن الإنسان العربي والمسلم، فعلى ذو الشعر الأصفر يتم إعدامه لسلبه عددًا من البنادق. وموضوع السلب من الموضوعات التي يحاول كتاب هذا النوع القصصي زجها في رواياتهم ذات الصلة بالعالم العربي.

وبعد مقتل علي يمضي المؤلف في سرد الوقائع والأحداث من خلال الأعمال التي يقوم بها عمر الأقرع الذي اكتسب لقبه بسبب مرض جلدي أصاب رأسه في طفولته.

والربط بين الأمراض المعدية والعرب موضوع سيتكرر بشكل أو بآخر في القصص اللاحقة. ويسوق المؤلف حادثة كان ضحيتها بعض الطلاب العرب المسافرين، فقد قَدِمَ هؤلاء العرب على عمر الأقرع وطلبوا منه طعامًا فكان أن أدخلهم وذهب إلى بغلتهم فذبحها وطهى طرفاً منها ثم قدمه لهم زاعمًا أنها ثور وحشي.

«اثنان منهم بلحى سوداء وشفاه متورمة تدمع أعينهم بسبب تعاطيهم الحشيش. . . وقد أضفى الكحل والحناء على ملامحهم الزيتونية مسحة أنثوية.»[٢٠]

وإذا كان المؤلف قد وصف البربر المسلمين بالتخلف والعنف فإن نعته للعرب بالتخنث والإدمان على المخدرات يحمل الكثير من التحامل والزيف.

وبعد وفاة عمر الأقرع في إحدى المعارك التي وقعت بين قبيلته وقبيلة أخرى كنوع من «الترفيه الانتحاري» يقوم أخوه حميد بالبحث عن مكان مناسب لكي تنتقل إليه القبيلة فيقع الاختيار على ريف قريب من مدينة فاس لا عيب فيه سوى سكانه العرب.

فهم يبدون للوهلة الأولى جذابين؛ إلا أنهم سرعان ما يظهرون على حقيقتهم التي تدعو إلى الاشمئزاز، وهم شعب يسهل إفزاعه. وإنها لمتعة أن تشاهدهم حين ترتعد فرائصهم فرقًا. . . إنهم ينطوون على غدرٍ كغدر الأطفال، يتراجعون عن ألاعيبهم بمجرد اكتشافهم. وهم متغطرسون وميالون إلى التباهي والتنفج. إن تجريدهم من كبريائهم ليعد متعة لا تعدلها متعة أخرى.[٢١]

(٢٠) Ibid., p.43.

(٢١) Ibid., p.112.

هذا التشـويه المبيَّت للشخصية العـربية من السهولة أن يقبله القاريء الأمريكي خاصة وإنه يقرأ قصة قدم لها أستاذ في جامعة هارفرد على أنها قصة واقعية.

ويستمر المؤلف في إعطاء صوره المقلوبة للإنسان العربي فهو يقتل أخته عندما يعلم أنها حبلت قبل الزواج.(٢٢) وهو عندما يذبح أضحيته على عتبة المسجد فإنه ينشر حنجرتها بالمنشار،(٢٣) وهو يصفع زوجته في الأماكن العامة،(٢٤) والأغرب من ذلك أن المؤلف يورد حكاية يظن أنها تحوي شيئاً من الطرافة، فآخر أبناء عبدالمؤمن يدفعه حماسه إلى وقف التناحر بين قبيلته وقبيلة أخرى، إلى أن يدخل إحدى خيام الأعداء حيث يجد امرأة عجوزًا فيندفع متلقفًا ثديها الضامر بفمه ومعلنا أن القبيلتين قد أصبحتا شقيقتين.(٢٥)

ولعل المثال التالي سيفي بإعطاء فكرة عن موضوع التزمت الذي ألحَّ عليه كتاب هذا النوع القصصي وتكرر فيما تلاه من روايات رائجة. ففي نهاية القصة يصور المؤلف مشهدًا لمعركة وقعت بين سكان الجبال في المغرب وبين جنود الاحتلال

> فاندفعت الجموع يؤججها الغضب والإيمان والاستخفاف بالحياة على نحو لم يتحقق منذ أيام النبي محمد «صلى الله عليه وسلم»... هذا الغضب الديني المتفجر كان متطرفًا كأي تزمت صحراوي... إن من عاداتهم أن ينقضوا الهدنة... إنهم يرغبون في قتل أكبر عدد ممكن من المسيحيين، إنهم وثنيون في أوقات السلم وعندما تحين منيتهم فإنهم مسلمون بكل ما تحمله الكلمة من معنى.(٢٦)

وفكرة التزمت هذه سوف تتكرر في القصص التالية مع شحوب في الجانب الرومانسي الذي اتسمت به هذه القصة. فلقد تراجعت القصة الرومانسية وحل مكانها القصة الحربية كما هو الحال في قصة «بيـت الظـل» *House of Shade*.(٢٧)

---

(٢٢) Ibid., p.33.

(٢٣) Ibid., p.97.

(٢٤) Ibid., p.129.

(٢٥) Ibid., p.313.

(٢٦) Ibid., pp.257-58.

(٢٧) Michael Home, *House of Shade* (New York: William Morrow, 1942).

على الرغم من أن أحداث هذه القصة تدور في شمال أفريقيا (ليبيا ـ مصر) خلال الحرب العالمية الثانية إلا أنها تختلف عن القصتين السابقتين في أن الشخصيات الرئيسة فيها هي شخصيات غربية، إذ يعمل برايس بلفورد على تخليص أحد الضباط الفرنسيين من الأسر النازي في إحدى القرى الليبية.

واستعانة المؤلف بالشخصيات العربية في هذه الرواية إنما تأتي لإضفاء اللون المحلي وإثارة الاهتمام في هذه القصة المهلهلة الحبكة. فالصحراء والجمال والملابس العربية لا تعدو كونها صوًى ودعامات يستعين بها لإخراج مشاهده القصصية.

وبرايس بلفورد جاسوس إنجليزي يتحدث اللغة العربية بطلاقة وينتحل اسمًا عربيًّا هو إبراهيم لمساعدته على التنكر وإخفاء هوِّيته. «إن إبراهيم عربي أكثر منه إنجليزيًّا. . . وفي عينيه نظرة متزمتة[٢٨]، إنه عربي وحاجي[٢٩] يستخدم الإسلام لتحقيق غاياته.»

وشخصية برايس/ إبراهيم قريبة الشبه من شخصية لورنس العربي (Lawrence of Arabia) ذلك النموذج الجاهز الذي يعوِّل المؤلف عليه وعلى ما يثيره من إيحاءات معينة في ذهن القاريء الأمريكي بدلاً من أن يبذل جهدًا في تطوير شخصية البطل.

بعد عبور برايس للحدود المصرية الليبية ينضمّ إلى قافلة متجهة إلى مدينة كشميش في ليبيا متقمصًا شخصية إبراهيم، ومتنكرًا في زي عربي ويتعرف على قائد القافلة عبدول، وتدور بينهما محادثة بلغة فصيحة، ويزعم برايس أن الفرنسيين قد هاجموه وسلبوا إبله، ويتوسل إلى عبدول أن يشيع ما سمعه حيثما يحل، ويعلق المؤلف قائلاً:

> لا يعد الكذب نقيصة بين العرب، فعندما يبالغ عبدول في روايته لهذه الحكاية ويضفي عليها ما تحتاجه من حركات وملابسات للقضية فإنه بذلك يقدم متعة للسامع. ولو اضطره الموقف إلى أن يستنجد برجاله لأقسموا على صحة ما يقوله.[٣٠]

---

(٢٨) Home, *Honse*, p.6.

(٢٩) Ibid., p.43.

(٣٠) Ibid., pp.83-84.

وبعد وصولهم إلى كشميش يتمكن برايس من تحديد مكان الضابط الأسير، ثم يسعى إلى أحد المسؤولين الألمان مدعيًا أن إدريس السنوسي يطارده بسبب انشقاقه على الطريقة السنوسية، وتكوين طائفة دينية مناوئة لليهود.

وتجمع الصدفة بين برايس وابنه جاكي دون أن يعلم الابن أن برايس هو والده الحقيقي. ويكشف المؤلف أن جاكي على علاقة بابنة الضابط الفرنسي الأسير وأنها تحمل منه جنينًا في أحشائها، ويخبرنا المؤلف أيضًا أن جاكي كوالده يتنكر في زي عربي ويقول عن نفسه: «لقد كنت طيلة وجودي في هذه القرية أصلي بانتظام وأنظر في القرآن الكريم وأسبح بمسبحة كنت أحملها.»(٣١)

يتكرر في هذه الرواية ميل الشخصيات إلى الاستخفاف بالدين الإسلامي على خلاف ما ورد في القصتين السابقتين. فالإسلام فيهما تمارسه شخصيات مسلمة؛ أما في هذه القصة فإن الحالة تختلف.

وتلعب الشخصيات العربية في هذه الرواية دورًا ثانويًّا ومساندًا للبطل الغربي ولا تمثل خطرًا فهي شخصيات متخلفة، كما أن القارىء الأمريكي في ذلك الوقت كان يخشى الألمان أكثر مما يخاف العرب. فالصورة الذهنية التي ترسمها هذه القصة للإنسان العربي هي شخصية لا تهدد القارىء ولكنها تظل متخلفة جدًّا. وعلى الرغم من أن الحرب العالمية الثانية مازالت مستعرة فإن المخيلة الأمريكية قد استحوذ عليها هاجس النفط ويمكن ملاحظة ذلك في قصة «رحلة إلى الداخل»(٣٢) *A Journey to the Interior*.

تشترك هذه القصة مع سابقتها في الضعف والرداءة، وتقع أحداثها في مدينة «رزوكا» الواقعة على أطراف الصحراء، والشخصية الرئيسة في هذه الرواية هي شخصية جاك ونتر الذي نقل إلى هذه المدينة للعمل في شركة النفط. وفي إحدى الحفلات التي يقيمها موظفو الشركة يتعرف جاك ونتر على منسوبيها وتتناهى إليه أنباء الفضيحة المالية التي اتهم فيها العربي «هبيتشي» باختلاس أموال الشركة. ويحدثونه عن أوروبي يدعى «رايدر» حاول

---

(٣١) Ibid., p.237.

(٣٢) P.H. Newby, *A Journey to the Interior* (New York: Doubleday, 1946).

مساعدة سكان «رزوكا» وتحسين أحوالهم المعاشية، إلا أن محاولاته باءت بالفشل، فاختار الرحيل إلى الصحراء والاختفاء فيها.

وفي اليوم التالي يستدعي سلطانُ «رزوكا» جاك ونتر فيذهب بصحبة محاسب الشركة كيتر، وبينما هما في الطريق يقول كيتر: «إنه لا يمكن الثقة بالعرب. إنني أمقتهم وأحتقرهم. فليس لديهم ذرة من الاحترام لأنفسهم، وليس لديهم إحساس بقيمة الوقت. إن الطريقة الوحيدة التي يفهمونها هي أن تتحكم فيهم، تمامًا، كالجنود.»(٣٣)

وعندما يصل الاثنان إلى قصر السلطان المبهرج والمطل على المرفأ يعلق جاك ونتر قائلاً «عفن وتفسخ، لا يبدو أنهم يعيشون في منازلهم إنهم يخيّمون فيها،(٣٤) فكلمة إنهم تشير إلى العرب، وهذه الأحكام العامة sweeping statements والصور النمطية للإنسان العربي ستصبح صفة لازمة لهذه الروايات الرخيصة الرائجة كما سنرى لاحقا.

وعندما استقبلهم السلطان واستقر بهم المجلس أخذ السلطان يبدي دهشته قائلا: «لا أعرف كيف يستطيع الرجل الأبيض أن يعيش بدون زوجات، لا أعرف، إنها مشكلة غالبًا ما تدعوني إلى التفكير فيها، لابد أن الشعب الأبيض جنس مختلف.»(٣٥)

وعندما يعود جاك ونتر إلى منزله يفاجأ بوجود المواطن هبيتشي المتهم باختلاس أموال الشركة، ويحاول هبيتشي الدفاع عن نفسه مؤكدًا أن المختلس الفعلي هو كيتر محاسب الشركة، إلا أن جاك ونتر يهدده بالضرب إن لم ينصرف.

ويقيم ذات ليلة جاك ونتر حفلة في منزله فيصل الجميع سوى كيتر الذي اعتدى عليه هبيتشي وهو في طريقه إلى الحفلة؛ ويسلم هبيتشي نفسه لرجال الشرطة معترفًا بأنه حاول قتل السيد كيتر.

---

(٣٣) Newby, *Journey*, p.50. These attitudes are expressed in Barbara Tokeman's article "The Night of Wartime & Reality in the Middle East," *Atlantic*, November 1979.

(٣٤) Newby, *Journey*, p.52.

(٣٥) Ibid., p.56.

وعند مقارنة هذه القصة بقصة «اللبوة» التي ظهرت قبل نشر هذه القصة بما يقرب من عشرين عامًا، فإننا نجد تحولاً في ملامح الشخصية العربية، فقد كانت صورة الإنسان العربي على شيء من الوسامة والحرية بينما نجد أن ملامح الشخصية العربية — منذ بداية هذه القصة — تطل علينا مشوهة وقبيحة، فعندما يصل جاك ونتر إلى رزوكا ويرى بحارًا عربيًّا نراه يقول «ياله من قدر رائع إنني لم أكن ذلك الرجل، وأن أمه لم تحملني في بطنها الضامر، أتصوره ينشج في أحد الأماكن الخربة وقد تكاثر الذباب على عينيه وفمه، إلى أن كبر وأصبح بحارًا يلقي بشباكه في الماء، إن مرأى هذا المخلوق ليدعو إلى الإحساس بالذنب.»[٣٦]

وفي صفحة أخرى يصف أحد العرب بأن أسنانه متثلمة وأن «له رائحة تزكم الأنوف» وأن «القوبا الحلقية قد تركت آثارا واضحة على رأسه» وأن «يديه القذرتين تشبهان براثن الحيوانات.»[٣٧] وهناك الكثير من الصور البغيضة التي يحشدها المؤلف حتى إنه ليكاد يسلب العرب إنسانيتهم، فرشيد له «وجه كلب ينتظر من يأخذه للنزهة وذيل خفي قد أخذ في الاهتزاز. . . ولسان خفي قد بدى يتدلى.»[٣٨]

ويشير المؤلف إلى وحشية العرب التي رأينا صورًا لها في القصص السابقة، فالسيد فورد يتكهن بأن رايدر «ربما اعترضه أحد العرب وقطع حنجرته لسرقة فرسه لمجرد نهب ثيابه أو ربما لمجرد القتل ليس إلا،[٣٩] ويمثل السيد رايدر «الغربي» الذي يأتي «لمساعدة» هؤلاء العرب المرضى ذوي الصفات الحيوانية ودعاة الوحشية والعنف. فقد سعى إلى تقديم المعونة الطبية لهم وطالب بإنشاء شبكة للمجاري وحث على محاربة البعوض.

وعلى الرغم من أننا نجد في هذه القصة بداية لتوظيف عنصر جديد new motif هو دور الغربي المنقذ فإن القصة التالية قد استثمرت هذا العنصر لتقدم النموذج الديمقارطي الغربي متمثلا في تعاطف المؤلف مع البطل ومطالبة العادلة، كما هو الحال في قصة القافلة تسير *The Caravan Passes*.[٤٠]

---

(٣٦) Ibid., p.8.

(٣٧) Ibid., p.9.

(٣٨) Ibid., p.72.

(٣٩) Ibid., p.62.

(٤٠) George Tabori, *A Caravan Passes* (New York: Appelton Century-Crofits, 1951).

تتناول قصة «القافلة تسير» لجورج تبوري آثار الاحتلال البريطاني وأصدار الممارسات الخاطئة للحكومة المحلية وانعكاس ذلك على حياة الناس في مدينة العريف، ويحشد المؤلف في روايته هذه كثيراً من الصور النمطية stereotype للإنسان العربي.

تنقسم القصة إلى قسمين: الأول تحكيه شخصية طبيب غربي؛ أما القسم الثاني فتأتي أحداثه من خلال شخصية عربية من سكان مدينة العريف.

تقع أحداث هذه الرواية في مرفأ العريف، وعلى الرغم من أن المدينة من صنع خيال الكاتب، إلا أن هناك بعض المؤشرات الدالة على أن هذه المدينة تقع ضمن الأراضي العراقية، فهناك العديد من الكلمات التي تتكرر في هذه الرواية وتحمل نكهة اللهجة العراقية إضافة إلى أسماء عدد من المدن العراقية كالموصل وبغداد.

والشخصية الرئيسة في الكتاب الأول هو الطبيب فرانسس فارقا الذي يعمل طبيبًا على ظهر سفينة راسية في مرفأ العريف، قصده حاكم المدينة ذات يوم بغية العلاج من داء السرطان. وعلى الرغم من تعاطف الطبيب مع سكان المدينة في محنتهم وفقرهم، إلا أنه يقرر إجراء العملية للحاكم. وبعد نجاح العملية يزوره نائبه وينهي إليه نبأ هروب أحد السجناء، فيستشيط الحاكم غضبًا ويصاب بنزيف داخلي يودي بحياته. عندها تحوم الشكوك حول الطبيب فارقا وتكون نهايته على أيدي حراس الحاكم.

وفي الكتاب الثاني يظهر معروف الفياظ على مسرح الأحداث فهو «مجرم سياسي» سجن وعذب بتهمة التحريض والمطالبة بتحسين أحوال الناس.

وعلى الرغم من احتواء هذه القصة على بعض الجوانب والأبعاد الفنية، إلا أنها كسابقتها تعرض ملامح الشخصية العربية في قالب نمطي، كما لو أن الكاتب لم يجرؤ على الخروج من إطار القالب القصصي الرائج الذي أثبت سيرورته ونجاحه، بسبب اتكائه على القوالب والأنماط الجاهزة للإنسان العربي والتي يتوقع قارىء هذا النوع أن يجدها فيه.

ازدراء الإنسان العربي في هذه الرواية إنما يمثل استمرارية لذلك النهج الذي سارت عليه القصص الرائجة من قبل، بيد أن المؤلف لا يفصح عن آرائه وأفكاره بشكل مباشر كما

هي الحال في القصص السابقة، وإنما تقوم الشخصيات الغربية بذلك الدور المتحامل، فمن ذلك وصف العرب بالشذوذ والانحراف الجنسي، فحاكم المدينة السيد البقا (the villain) «يربت على عجيزة غلام في إحدى الحفلات الخاصة.» وابنه غريب تبدت عليه صفات التخنث وهو يقص على الطبيب كيف أن والده «قد بنى جدارًا على ابنته عندما علم أنها لم تكن عذراء ليلة زفافها، وأن روحًا مجهولة، لا يعرف أحد هويتها قد أعطتها خنجرًا استعملته لقطع أوردتها به.»(٤١) وحينما قبض على معروف عمد الجنود العرب إلى اغتصاب زوجته أمام عينيه. وفي موضع آخر من القصة يفضي السيد البقا بأنه يقرأ *ألف ليلة وليلة* للإثارة الجنسية ويأخذ في رواية بعض مشاهدها المثيرة. وفي مكان آخر يصف المؤلف أحد الباعة المحتالين وهو يسوِّقُ لعطوره المزيفة «بأنها تجعل النساء ينزعن ملابسهن شبقًا.(٤٢) «وان النساء العربيات غبيات يكثرن من البكاء، بل إنهن حيوانات.(٤٣) وحينما تستغرق إحدى الشخصيات الإنجليزية في تفكيرها العميق فإنها تصل إلى قناعة مؤداها أن هؤلاء العرب شعب ميؤس منه... وأنه لا يمكن الموازنة بين رجل يقرأ بروست Proust وآخر لا يعرف عنه شيئاً.(٤٤) بل إن المستشار البريطاني يرى أنهم «إما أن يكونوا خلف جواميسهم بالقرب من إحدى الترع، وإما أن تجدهم في المسافن، أو في حقول النفط أو في الطواحين، يتشابهون في قسوتهم. وحيناً تراهم قد هدموا الأرصفة.(٤٥)

وتكتظ هذه القصة بالصور المُقَوْلَبَة للإنسان العربي. فجميع الشخصيات العربية، ماعدا معروفا وزوجته، تدعو إلى التقزز والاشمئزاز. فهي مشوهة أو مشلولة، أو تعاني من أمراض تتراوح بين القوبا الحلقية والجذام وفقر الدم. تقول إحدى سيدات القصة الإنجليزيات وقد شعرت بالإحباط في مهمتها التبشيرية «إن فقر الدم ليس إلا ذريعة آسيوية لتسويغ كسلهم.»(٤٦)

---

(٤١) Tabori, *Caravan*, p.98.

(٤٢) Ibid., p.125.

(٤٣) Ibid., p.46.

(٤٤) Ibid., p.162.

(٤٥) Ibid., p.185.

(٤٦) Ibid., p.156.

بل إن الطبيب فارقا الذي أبدى تعاطفًا مع المواطنين قد شعر بالاشمئزاز والغثيان منهم وأفزعه منظر جماعة من الأطفال «يقودهم ماسح أحذية له وجه قرد، ألصقوا أنوفهم على الحاجز الزجاجي . . . بينهم قزم مسكين يرتدي بنطالاً عسكريًّا يصل إلى إبطيه . »(٤٧)

ويبدو أن تعاطف المؤلف مع مفهوم العدالة الذي تمثله شخصية معروف، هو الذي جعله يظهر معروفا في حال أفضل من غيره. والشخصية العربية في هذه القصة شخصية عاجزة عن تدبير شؤونها دونما مساعدة غربية «فهل في إمكانهم إدارة هذه الحقول النفطية دونما مساعدة غربية؟ «بل إن معروفًا يرفض وظيفة عرضها عليه الضابط الإنجليزي كنوع من المصالحة فيقول: أخبرني هل لديك عمل للبلايين من أمثالي؟ إنك لن تستطيع تحويل هذا البلد إلى سجن، فهل في إمكانك أن تجعله حظيرة كلاب . »(٤٨)

إن الملامح العامة للشخصية العربية في هذه الرواية هي ملامح سلبية وبشعة وجاهلة، وتظل شخصية معروف هي الشخصية الإيجابية التي تنتقد السلطة وتفهم المغزى المبيت «للمساعدات الغربية» فترفضها. وهذه المواقف النبيلة والأبعاد الإيجابية في شخصية البطل معروف لن تتكرر في شخوص القصص اللاحقة فلم يعد هناك مكان للوسامة أو الشجاعة التي اتصفت بها بعض الشخصيات في القصص السابقة. يقول معروف مشيرًا إلى الغرب وإلى صنائعهم في الوطن العربي:

> إنه لم يعد يضيرنا ما ينعتوننا به فليس في مقدورنا أن نلزمهم بما نريد. إذا كنا ضعافًا فإننا في نظرهم أقلية رومانسية وإذا كنا أقوياء فإننا متوحشون وتنقصنا الروح الرياضية. يضحكون إذا خسرنا، ويفزعون إذا ربحنا فليس في مقدورنا إرضاؤهم. يودعوننا السجون ثم ينعتوننا بأننا طيور السجن، يقطعون قلوبنا فنكون بالنسبة لهم قساة بدون قلوب، وبعد أن يمرِّغوا وجوهنا في الوحل فإننا عندئذ نثير فيهم الاشمئزاز والتقزز. (٤٩)

---

(٤٧) Ibid., p.110.

(٤٨) Ibid., p.261.

(٤٩) Ibid., pp.301-302.

قصص المغامرات البترولية Oil Adventure Novels

لقد أدى اكتشاف النفط في الوطن العربي بشكل عام ومنطقة الخليج بشكل خاص إلى فتح نافذة جديدة أطل من خلالها كتاب هذا النوع القصصي على هذه المنطقة فتوالى تأليف روايات جديدة يمكن تعريفها بقصص المغامرات البترولية[٥٠] oil adventure novels . وينصب اهتمام روايات المغامرة على البطل الذي يسعى جاهدًا إلى التغلب على ما يعترض سبيله من عقبات أو صعوبات قد تعيقه عن تحقيق النصر.[٥١]

ويقدم مؤلفو هذا النوع القصصي شخصيات أبطالهم في أزياء مألوفة يمكن للقارىء أن يتعرف عليها ويتفاعل معها ويشاركها مرارة الإخفاق وحلاوة الانتصار، فاصطفوا أبطالهم من الجنس الأوروبي صاحب الحضارة الغربية، واصطنعوا من الشخصية العربية حاجزًا عنيفًا يمنع البطل الغربي من تحقيق أهدافه «الإنسانية».

فالشخصيات العربية بتخلفها وجهلها ووحشيتها تعمل دائمًا على إعاقة هذا «الغربي المنقذ» وتسبب له الإحباط أو الهلاك.

وتمثل قصة «محاكمة بالنار»[٥٢] *Trial by Fire* نمطًا من قصص المغامرات البترولية. تقع أحداث القصة في مشيخة قريان. والشخصية الرئيسة في هذه القصة هي شخصية لزلي جرانت المستشار الإنجليزي لشركة نفط بريطانية تتخذ من قرية «أم باس» مقرًا لإدارتها ويكشف المؤلف عن الفساد الإداري في هذه الشركة ممثلاً في شخص مديرها وليم ولفرز، وعما سببه من زعزعة للعلاقة الزوجية بين لزلي جرانت مستشار الشركة وزوجته اليزابث. وحيث إن العقدة القصصية في هذه الرواية ليست موضع النظر فإن التركيز سينصب على التغير الذي طرأ على صورة الإنسان العربي في هذه الرواية.

---

(٥٠) Muhammad M. Abahsain, "Arabs in Popular Fiction Published in the U.S.A. (1919- 1973) 'Annotated Bibliography," *Journal of the College of Arts, King Saud University*, Vol.14, No.1 (A.H. 1407/ 1987), 71-89.

(٥١) John G. Cavelti, *Adventure, Mystery, and Romance Formula Stories as Art and Popular Culture* (Chicago: The University of Chicago Press, 1976), p.40

(٥٢) Charles Elliot, *Trail by Fire* (New York: GP Putnam & Sons, 1957).

ولعل «عنصر المساعدة» help motif هو أبرز عناصر هذه الرواية . ولكي يحقق المؤلف هذا العنصر فإنه يعمد إلى إلباس العرب زيًّا متخلفًا ويصورهم في حالة عجز وقصور عقلي . وعلى الرغم من أن المؤلف يقدم لزلي جرانت كشخص يتحدث العربية ويحترم التقاليد المحلية إلا أن آراءه تنم عن اشمئزازه ومللـه . فمشيخة قريان «قطعة من الصحراء المشوية، يقطنها عدد قليل من صيادي اللؤلؤ الفقراء وبعض البدو المعوزين الذين سلبهم هجير الصحراء نبلهم . »(٥٣) ويدفعه حماسه لمساعدة العرب إلى الدفاع عن جاسم ابن قاضي القرية الذي تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت فيصر على توظيفه في الشركة كمساعد منقب رغم معارضة ولفرز الذي لا يرى في العرب سوى العجز والجهل . ويبرر جرانت موقفه هذا «بأنه ليس مستشرقًا مزيفًا . فأسطورة لورنس لم تفقد بريقها فحسب، ولكنها بليت مع الزمن، إن البدو يثيرون دهشتي بنبلهم على الرغم من أن مظهرهم يدعو إلى الرثاء والشفقة، إنني لا أدعي حمايتهم من التغيير، إنني مقتنع بأن عليهم أن يتحضروا . . . وأن يختاروا بين أن ينفضوا الرمل عن أفكارهم أو أن يكون الهلاك مصيرهم . (٥٤)

والرواية مكتظة بالصور المقلوبة للإنسان العربي مليئة بالأحكام العامة (general statments) . فالعرب بدو متخلفون ليس بينهم عالم أو مثقف، فالشيخ محمد بن كفره حاكم «أم باس» في نظر المؤلف يمثل العربي الاتباعي الذي يقيم الولائم ويعقد الاجتماعات ويتجسس على رعاياه بواسطة تيليسكوب أهداه له الإنجليز؛ بل إنه ليكاد يتميز من الغيظ كلما أطال المستشار البريطاني زيارته وأعاقه عن العودة إلى محظياته السود . . . أعمى بصيرة قد ولد في أحضان الجهل، يمنعه كبرياؤه البدوي من النظر إلى الأمور بشكل متجرد . (٥٥) ويشترك الشيخ صالح بن جاسم مع محمد بن كفره في جهله وشبقه الجنسي فهو «سادي يسيء معاملة محظيته السوداء ذات الأربع عشرة سنة ويضربها بالسوط بغية إثارة غريزته الجنسية التي لم تستطع الوصفات الطبية اللبنانية إثارتها . »(٥٦) ويكشف المؤلف عن عجز الشيخ صالح بن عيسى في إدارة شؤون القرية ونزوعه نحو العنف وقتل النساء والأطفال .

---

(٥٣) Ibid., p.10.

(٥٤) Ibid., p.210.

(٥٥) Ibid., p.47.

(٥٦) Ibid., pp.55-56.

فعندما زاره لزلي جرانت مع زوجته لتناول طعام العشاء أخذ يسأل لزلي عن المبلغ الذي دفعه مقابل شراء زوجته وكم لديه من المحظيات والعشيقات. ويستمر المؤلف في رسم هذه الشخصية رابطًا بين أفعالها وفكرة الوحشية عند العرب، فصالح يتنفج عندما يتذكر مشاركته في قتال الوهابيين وتلذذه بمقتلهم: «لقد قتلناهم جميعًا، قتلنا جميع النساء، وقتلنا جميع الأطفال.»(٥٧)

أما شخصية جاسم ابن قاضي القرية فيصفها جرانت بأنه «على الرغم من ثقافته الغربية إلا أنه يتحدث بالنغمة نفسها التي يتحدث بها أبناء جنسه وهي مغالاتهم في تقدير أنفسهم(٥٨) إنه ينتمي إلى أولئك الذين يأكلون طعامًا يثير الغثيان ويجرح مفهوم النظافة الإنجليزية.»(٥٩)

ويتجلى هذا الموقف العنصري في رفض شركة النفط بناء مساكن صحية لعمالها العرب «فهم بطبعهم ميالون إلى القذارة(٦٠) يتبولون في الأماكن العامة،(٦١) ولهم عيون تشبه الجوز الهندي وهم بالقرود أكثر شبها،(٦٢) جميعهم على هذه الشاكلة فلا فائدة من تعليمهم أي شيء،(٦٣) حذار أن تثق بعربي.»(٦٤)

ويبرز في هذه الرواية عنصر جديد new motif يوظفه المؤلف بغية تشويه الشخصية العربية، فالمحرض الفلسطيني يجتاح المشهد القصصي ليثير الشغب «كما هي عادة شعبه... قد علا صوته وتدافع لعابه من فمه الملتوي.»(٦٥)

---

(٥٧) Ibid., p.154.
(٥٨) Ibid., p.37.
(٥٩) Ibid., pp.42-43.
(٦٠) Ibid., p.15.
(٦١) Ibid., p.102.
(٦٢) Ibid., pp.144-56.
(٦٣) Ibid., p.69.
(٦٤) Ibid., p.213.
(٦٥) Ibid., p.66.

وهذه الصور البغيضة والملامح العدوانية قد يقبلها القارىء الأمريكي دونما نقاش أو تفنيد، وعليه فإنه من الممكن الافتراض أن تلك النوعية من القراء ستكون أرضًا خصبة لتصديق الدعاية الصهيونية المعادية للعرب، والتي بدأت في التبلور خلال تلك الحقبة التاريخية.

وحيث إن القصص الثلاث اللاحقة تشترك مع القصة السابقة في كثير من جوانبها، وفي انضوائها تحت نوع «قصص المغامرة البترولية» (oil adventure novels) فإنني سأنظر إليها كوحدة متجانسة «فالواحة المشؤومة»[٦٦] *Doomed Oasis* و«قصة الصياد والقرون»[٦٧] *The Hunter and Horns* «رواية الجمال السود»[٦٨] *The Black Camels* جميعها تقع أحداثها في منطقة جغرافية تمتد مابين المملكة العربية السعودية ومشيخات الخليج العربي والشخصيات الرئيسة فيها هي شخصيات غربية فيماعدا «الجمال السود» التي تلعب فيها شخصيتان عربيتان دورًا مهمًّا في تطوير الأحداث إلى جانب الشخصية الغربية.

وتشترك هذه الروايات الثلاث في توظيف عنصر المساعدة الغربية western help motif بغية إخراج العرب من تخلفهم ووحشيتهم، ويظهر العرب في هذه الروايات في أنماط مُقَوْلَبَة stereotyped images بكل ما تحمله هذه الكلمة من ظلال ثقيلة وتحامل واضح.

وتتميز قصة «الصياد والقرون» عن سابقاتها في توظيف عنصر المساعدة الغربية «فبارسون» الذي يعمل مدرسًا في إحدى المدارس لم يأت لمساعدة العرب وإنما لإنقاذ «الغزال العربي Arabian oryx الذي يوشك على الانقراض بسبب وحشية العرب واعتقادهم في أن قرنه منشط جنسي بعد سحقه وتناوله.[٦٩] إلى جانب ذلك فإن هذه القصة قد سلبت الشخصية العربية صفاتها الإنسانية. أما قصة «الجمال السود» التي صدرت في نهاية الستينات فإن ملامح الشخصية العربية فيها قد تلونت بنكهة محلية متميزة مع بقاء ملامحها العربية العامة.

---

(٦٦) Ralph Hammond-Innes, *Doomed Oasis* (New York: Albert Knoft, 1969).

(٦٧) W.H. Canaway, *Hunter and the Horns* (New York: Harper & Row, 1962).

(٦٨) Ronald Johnston, *Black Camels* (New York: Harcourt Brace & World, 1969).

(٦٩) Canaway, *Hunter*, p.

والملامح الشخصية للإنسان العربي في هذه الروايات الثلاث هي ملامح قذرة ومشوهة، تحمل صفات حيوانية وتعتنق دينًا يدعو إلى العنف والقسوة. فيوسف في رواية «الواحة المشؤومة» شخصية قذرة جدًّا تتدلى عمامته الملطخة بالزيت من فوق كتفه. قد ارتدى معطفًا أوروبيًّا ممزقًا فوق ثيابه... والنفط يزيد سواده سوادًا.»(٧٠) في «الصياد والقرون» يصف المؤلف الطلاب باللقطاء وأن براثنهم البنية brown paws قد استقرت على مقاعد الدراسة.(٧١) ويقص أحد الموظفين الغربيين العاملين في شركة النفط أنه رأى «طفلاً في الثامنة أو التاسعة من عمره قد قطعت يداه وعلقتا حول عنقه تنفيذًا لأوامر القاضي كعقاب له على سرقته زوجًا من الأحذية.»(٧٢) أما في الواحة المشؤومة فإن المؤلف يعمد إلى استثارة مسيحية القارىء الأمريكيي، فإحدى الشخصيات العربية تشهر كراهيتها للدين المسيحي ممثلاً في إحدى الشخصيات النصرانية وأنه شخص غريب نصراني مسيحي، إنه يجب على أن أكرهه لأنه كافر، لكني أحبه كما أحب أخي.»(٧٣)

ويكشف جرانت عن خوفه عند رؤية بعض العرب « فعيونهم ترعبني... لقد سمعت همساتهم، وسمعت تلك الكلمة «نصراني» لا يمكن أنني أخطأت سماعها إنهم يكرهوننا جميعًا.»(٧٤)

إن مؤلف هذه القصة يتكىء في روايته هذه على الشعور الجمعي *subconscious* للقارىء الأمريكي، فهو يخاطب القارىء مستعملاً ألفاظًا لها وقع في نفسية المتلقي. ألفاظ تعود في أصولها إلى زمن الحرب الصليبية وتحمل في تضاعيفها إيحاءات كراهية تاريخية سحيقة. لقد أسهم هذا النوع القصصي في تعميق الهوة بين القارىء الأمريكي والإنسان العربي، مما أفاد الحركة الصهيونية في سعيها المهووس لتشويه الشخصية العربية فقد قذفت المطابع في الغرب بالعديد من الروايات التي أفادت من عقدة الذنب التي يشعر بها الغربي

(٧٠) Hammond-Ines, *Oasis*, p.61.
(٧١) Canaway, *Hunter*, p.14.
(٧٢) Ibid., p. 64.
(٧٣) Hammond-Ines, *Oasis*, p.170.
(٧٤) Ibid., p.204.

لما جرى لليهود على يد هتلر وأعوانه، وفي الوقت نفسه يعمد هذا النوع القصصي إلى تشويه الإنسان العربي وسلبه إنسانيته.

ولعل مؤلف قصة «المشرقي»[٧٥] *The Levanter* قد أفاد من ذلك المخزون السلبي فسعي إلى توظيف الأفكار والموضوعات السابقة في رسم شخصياته، فالعربي شخصية شريرة قذرة يدفعها حقدها الشخصي إلى الانتقام من الأبرياء. والأبرياء في هذه الرواية هم الإسرائيليون الذين عمروا فلسطين!

تقوم هذه الرواية على ثنائية التخلف والعنف ويمثله: العرب. والتقدم والبراءة ويمثلها: الإسرائيليون. ويختفي في هذه القصة عنصر «المساعدة الغربية» إذ لم يعد العرب جديرين بالمساعدة وإنما هم مصدر خطر على الغرب. ويظل التخلف والعنف والانغماس في اللذات الجنسية من الصفات الملازمة لملامح الشخصية العربية في هذه الرواية.

ورواية «المشرقي» *The Levanter* من النوع القصصي الدعائي المسوِّغ للعنف الإسرائيلي والمشوه للشخصية العربية بغية استثارة وجدان القارىء الأمريكي للتعاطف مع إسرائيل والمكرس للملامح المغلوطة والمشوهة للشخصية العربية. وتقوم العقدة القصصية فيها على ثنائية الشر (العرب) يقابله الخير (الإسرائيليون). والشخصية الرئيسة فيها هي شخصية رجل الأعمال مايكل هول الذي عملت عائلته في سورية منذ أجيال بعيدة في التجارة البحرية، وتحت طائلة الابتزاز والتهديد يضطر هول إلى «التواطؤ» مع الحركة العسكرية الفلسطينية في قصف شواطىء تل أبيب والمواقع السياحية في إسرائيل، إلا أن مايكل هول يتمكن من الاتصال بالاستخبارات الإسرائيلية في قبرص وينهي إليها ما يتهدد الإسرائيليين من الخطر ويتم إبطال العملية بفضل يقظة «الموساد» ويقضي على «المخربين» جميعًا، والقصة في مجملها إشادة بالإسرائيليين وازدراء وتشويه للعرب. ويمثل الفلسطيني صالح غالد الوغد villain الذي لا يتورع عن ارتكاب الجرائم لتحقيق مطامحه الشخصية. ويعترف الصحفي لويس بريسكت الذي عُهدت إليه مهمة تقديم تقرير عن صالح غالد بأن الحركة العسكرية الفلسطينية هي المنظمة الوحيدة المنشقة التي يقودها خالد غالب ذو

---

(٧٥) Eric Ambler, *The Levanter* (New York: Antheneum Press, 1972).

السمعة الخطرة.[٧٦] إنه متطرف جدًّا على شاكلتهم جميعًا، إنه الوهم الذي يدفع إلى الحقد؛ إنه قدرهم أن يكونوا كذلك.[٧٧] هذا التطرف والتزمت الذي لاحظناه في الروايات السابقة قد انتقل في هذه الرواية ليدل على الإنسان الفلسطيني، فأصبح الفلسطيني نموذجًا جاهزًا للعنف، يستخدمه كتاب القصص الرائجة وتكرسه الوسائل الإعلامية في أذهان الإنسان الأمريكي في وقتنا الحاضر.

ولا تقل الشخصيات الأخرى في قذارتها وعنفها عن شخصية «صالح غالد» فالرائحة الكريهة تسبق أحمد عندما يقدم نفسه.[٧٨] و«الفك المكسور لصالح يدل على ما جبل عليه من عنف منذ صغره.»[٧٩] ويقابل هذه الشخصيات العربية شخصيات إسرائيلية مألوفة للقارىء الأمريكي بنمشها وشعرها الأشقر وملامحها الأوروبية[٨٠] وعيونها الزرقاء التي لم تصبها التراخوما أو أمراض الروايات السابقة.

لقد فشلت هذه الرواية في عرض قضية الشعب الفلسطيني التي زعم الصحفي لويس بريسكوت أنه قد ندب نفسه لعرضها؛ تمامًا كالفشل الذي مُني به خالد غالد في هذه الرواية.

وهذه الرواية نموذج للقصص الدعائي الذي يسعى إلى تشويه الشخصية العربية والذي نجد له أمثلة كثيرة استشرت فيما بعد الحظر النفطي عام ١٩٧٣م، وأسرفت في عداوتها للعرب عامة وللشعب الفلسطيني خاصة.

---

(٧٦) Ambler, *Levanter*, p.6.

(٧٧) Ibid., p.9.

(٧٨) Ibid., p.131.

(٧٩) Ibid., p.23.

(٨٠) Ibid., p.280.

الخاتمـــة

لقد كان الغرض من هذه الدراسة هو تتبع ملامح الشخصية العربية كما ظهرت في بعض الروايات الرائجة sub-literary fiction المطبوعة في الولايات المتحدة الأمريكية خلال خمس حقب من تاريخنا المعاصر (١٩١٩-١٩٧٣م).

وقد تبنت الدراسة منهجًا يكشف عن المراحل التي مرت بها ملامح الشخصية العربية، فعرضت لبعض الدراسات التي تطرقت لهذا الموضوع مع الإشارة إلى مفهوم القوالب النمطية وأثرها في تشكيل الصورة المغلوطة للشخصية العربية، وتلت ذلك دراسة تطبيقية على عشر قصص رائجة تم اختيارها للكشف عن ملامح الشخصية العربية في هذه الروايات، فالحب الرومانسي الذي يجمع ما بين رأس بن هوقر وزوجته عزيزة في رواية «اللبوة» وصراعهما البطولي للاحتلال الأسباني إنما يمثل جانبًا من الملامح الإيجابية للشخصية العربية في روايات العشرينيات، بينما يمثل صقر السنوسي شخصية العربي الذي لايتورع عن الخداع لتحقيق مكاسبه المادية في تجارة الرقيق.

وفي رواية «لحم الثور الوحشي» اتسمت الشخصيات العربية بالسلبية والتخلف والغرابة، ومؤلف هذه الرواية يرمي إلى خلق الأجواء القصصية الغريبة بغية الإثارة، ونقل القارىء إلى أجواء رومانسية ليحقق بذلك دخلاً وسيرورة لقصته بين القراء الذين لم يخالجهم الشك آنذاك في أهداف ومآرب الوسائل الإعلامية الأمريكية بشقيها المقروء والمسموع. فالقاريء الأمريكي في تلك السنوات ربما تعاطف مع شخصيات هذه القصة في صراعها مع الاحتلال الأسباني الذي لم يمض على رحيله عن الأراضي الأمريكية سوى جيل أو جيلين.

«وفي بيت الظل» *House of Shade* ينطق المؤلف شخصياته القصصية العربية لتنوب عنه في وصف العرب، فالجميع بدو لافرق بين ساكني البادية منهم وسكان المدن، والمؤلف في سعيه لتشكيل حبكة قصصية تستأثر باهتمام القارىء فإنه يصطنع شخصية المنقذ الغربي ذي الملامح اللورنسية Lawrence of Arabia ويتواتر ظهور شخصية المنقذ الغربي في هذا النوع القصصي الرائج. ففي قصة «رحلة داخل الحدود» *Journey to the Interior* يصل العلو بالمؤلف في رسم شخصية المنقذ الغربي «رايد» إلى الارتقاء به إلى منزلة المسيح عليه السلام، ولكي يبرز المؤلف أهمية «المساعد الغربي،» فإنه يعمد إلى إظهار العرب في وضع

عاجز يثير الشفقة والرثاء لتأكيد مصداقية الدور الذي يقوم به «المساعد الغربي». فالصورة المزرية للبحار العربي في بداية هذه الرواية تعد في حد ذاتها مؤشرًا كافيًا لحاجة العرب إلى المساعدة على الرغم مما يتصفون به من عنف وشذوذ وغدر وقذارة.

وتبدو الشخصية العربية في «القافلة تسير» *A Caravan Passes* شخصية سلبية وثائرة معًا، وكغيرها من روايات المشاتم الرائجة فإن هذه الرواية تكتظ بالشخصيات المتخلفة، فيما عدا شخصية البطل «معروف» الذي يسعى مع زوجته إلى تحسين الأوضاع المعاشية لسكان مدينة العريف.

أما روايات المغامرات البترولية الثلاث، «محاكمة بالنار»، و«الصياد والقرون»، و«الواحة المشؤومة» فإنها روايات يلجأ مؤلفوها في رسم شخصياتهم القصصية إلى الصورة النمطية والمغلوطة للشخصية العربية stereotyped images . وتقوم الشخصيات الغربية في هذه الروايات بالإفصاح عن أفكارَ المؤلف في نعت العرب بالتخلف والعنف وإصدار الأحكام العامة، كما تشترك هذه القصص الثلاث في توظيف عنصر «الغربي المنقذ» في البناء القصصي.

وتشترك رواية «الجمال السود» مع القصص السابقة في أنها من قصص المغامرات البترولية، إلا أن هناك تغيرًا قد طرأ في هذه الرواية فالمؤلف لم ينظر إلى العرب كأمة واحدة وإنما عمد إلى تقسيمهم إلى جنسيات مختلفة وقوى سياسية متصارعة.

وكما رأينا آنفًا، فإنه في الوقت الذي تنحدر فيه الشخصية العربية إلى الحضيض في مظهرها ومسلكها فإن أسهم شخصية «المنقذ الغربي» تظل في ارتفاع ملحوظ، فإذا كان العرب على شاكلة الحيوانات فإنه من حق المالك أن يطرد هذا القطيع من أرضه. وإذا كان العرب ضحية للأمراض المعدية والشذوذ الجنسي، فإن القارىء الأمريكي سيتعاطف مع إسرائيل في سعيها الحثيث لاجتثاث الشعب الفلسطيني من أرضه. وعندما يحارب العرب من أجل حقوقهم فإن الغرب سيعتبر ذلك عنفًا وغدرًا واعتداءً على حدود دولة أخرى. فالقارىء الغربي سيرفض التعاطف مع صالح غالد بطل رواية «المشرقي» *The Levanter* الذي يسعى لمحاربة إسرائيل.

إن هناك علاقة واضحة بين تدهور ملامح الشخصية العربية وبين تزايد التدخل الغربي في مقدرات الوطن العربي، فالقالب النمطي للشخصية العربية الذي كرسته وسائل الإعلام الأمريكية وأفادت منه الحركة الصهيونية لا يمكن فصله عن القالب النمطي الذي يصادفه القارىء في هذه الروايات. وإذا افترضنا أن تشويه الشخصية العربية في هذه الروايات لم يكن مبيتًا فإن إلحاحها المستمر خلال هذه الحقب الخمس على الإساءة إلى الإنسان العربي ربما يعد في حد ذاته دليلاً كافيًا على مصداقية ما يذهب إليه كل من محيي الدين صبحي وساري ناصر وأدموند غريب وجانس تيري واياد القزاز وأدوارد سعيد من أن تشويه الشخصية العربية في الوقت الحاضر إنما هو أمر مبيت يستهدف الإساءة إلى العرب ومساندة الحركة الصهيونية.

ولعل التحسن المؤقت والطفيف الذي طرأ على الرأي العام الامريكي نتيجة للغزو الاسرائيلي للأراضي اللبنانية في أوائل الثمانينات، وما جناه الإسرائيليون على أنفسهم بسبب عنصريتهم وجرائمهم ومجازرهم الآثمة ضد أطفال الحجارة في الأرض الفلسطينية المحتلة، قد يكون مؤشرا إلى تحول محتمل في الرأي العام العالمي، فلم يعد في وسع إسرائيل تضليل العالم ومواصلة مزاعمها بعد الأعتراف الرسمي الفلسطيني بها.

وعلى أية حال، فإنه في الوقت الذي بدأت فيه الصورة الإسرائيلية تكشف عن وجهها العنصري عالميا، فإن الشخصية العربية التي عانت ولاتزال من جراء التشويه قد ظلت كما هي. وإلى أن يحين الوقت الذي ينظر فيه إلى الشخصية العربية من خلال علاقة الند للند، فإن المحاولات الفردية لتصحيح الهَوِّية المغلوطة للشخصية العربية لن تفي بالغرض المطلوب. وبناءً عليه فإن على العرب انتشال صورتهم من وهدة الحضيض وتخليصها مما شابها عبر العصور من تشويه وتحامل. ولن يتأتي ذلك إلا بوحدة الهدف، وتحسين الأوضاع الاجتماعية للإنسان العربي في وطنه. ومشاركة المبدعين العرب في نسيج الحضارة الإنسانية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

The Arab Character in Popular Section Published in U.S.A. (1919–1973)

Muhammad Mansour Abahsain
Assistant Professor, Department of Arabic,
College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. This article takes a chronological approach in examining the Arab image as it is presented in some sub-literary novels published in the U.S.A. (1919-1973).

The intention of this article is to move beyond simple identification of existing stereotyped Arab images. Rather, it traces the development of these images from the early years of this century into the 1970s.

A specific set of negative traits is assigned to Arab characters in all of the novels. These traits grow more explicit and damaging in each suceeding decade.